منوعات عن قصبة شالة وماإليها

محمد المنوني

كلية الآداب - الرباط

حسب تخمينات الباحثين، فإن منطقة شالة القديمة تبتدىء من هضبة باب زعير شرق مدينة الرباط – المغرب إلى أن تحاذي منخفضات وادي أبي رقراق، فتمتد متعاطفة حتى تتصل بفم الوادي عند قصبة الاوداية.

وفي عصر ماقبل الإسلام، عرفتها الدول التي مرت بالمغرب في تاريخه المعروف، غير أن الذين استمرت آثارهم بشالة هم الرومان.

وفي العصر الإسلامي، يرجع أقدم نص جغرافي عنها إلى منتصف القرن الهجري الرابع، فيذكرها ابن حوقل[1] في هذه الفقرة: «وبشله رباط يرابط فيه المسلمون، وعليه المدينة الأزلية المعروفة بشله القديمة، وقد خربت، والناس يسكنون برباطات تحف بها، وربما اجتمع في هذا المكان من المرابطين مائة ألف إنسان، يزيدون في وقت وينقصون لوقت، ورباطهم على برغواطة».

هذه ارتسامة ابن حوقل عن شالة خلال المائة الهجرية الرابعة، والفقرة غنية بالإشارات التاريخية.

فشالة القديمة وجدها الرحالة خربة عند منتصف القرن الرابع الهجري، ويبدو أن هذا كان واقعها منذ ظهور الإسلام بالمنطقة.

كما أن وصف شالة بالقديمة مؤشر على وجود سلا الحديثة في الفترة ذاتها، فلا قديم دون

حديث. وإلى هذا يفيد ابن حوقل أن شالة موضع جهاد لنشر الإسلام، وهي خطة بدأها الإمام إدريس الأول، فكانت شالة القديمة أول جهة قصدها بالجهاد من عام ١٧٢ هـ: سنة بيعته[٢] فأفاد «كتاب صفة الأرض» استمرار هذه الظاهرة إلى مابعد جلاء الأدارسة عن شالة.

وسيأخذ المبادرة -مرة أخرى- أبو الكمال تميم اليفرني، وكانت قاعدة إمارته هي شالة، فكان يغزو منها برغواطة في كل سنة مرتين، إلى أن يُتوفىّ سنة ثمان وأربعين وأربعمائة [٣]

فيضطلع -بعده- بالجهاد دولة المرابطين، إلى أن يقضوا على هذه الطائفة نهائياً. ويتركوا بالمنطقة الرمز الكبير، والأثر العظيم الذي خلّد ذكرهم عالياً. وخلّد مأثرة شالة في الوقت نفسه، استشهاد ماهد دولة المرابطين الإمام عبدالله بن ياسين، حيث يرقد في مشهده قريباً منها.

وهكذا نتبين أن المنطقة موضع جهاد، ومركز مقصود لتجمع المجاهدين، حيث كانت أعدادهم تتصاعد حيناً إلى مائة ألف مرابط أو أكثر.

إن تجمّع المجاهدين ظاهرة انتقلت إلى مدينة الرباط بعد تأسيسها في أواخر القرن الهجري السادس، فكانت الجيوش الموحدية تمر بها وهي في طريقها إلى الأندلس. في مشهد بطولي أثار إعجاب مؤلف «الاستبصار»[٤]، فسجل ملاحظته في هذه الارتسامة:

«وهذه المدينة قد شرفها هذا الأمر العزيز وكرمها، بما أحدثه فيها من المباني الرفيعة، والمنارة البديعة، وماهي وقت مرور المحلات عليها إلا من عجائب متنزهات الدنيا، لاسيّما في الأعوام الخصبة والفصول المعتدلة، ناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملوء بالبشر، والزوارق في الوادي بركابها، والمنارة المطلة، وعلاقات الثمار، وعقد الزيتون، وجدر الكرمات، وقباب الجلوس للسادات -أيدهم الله- ظاهرة، وقبلة الجامع وأكثر منازه ذلك الحصن المشرف ظاهرة من المدينة، وماهي في أوقاتها إلا أملح من ديار مصر، ومايحكى عن دجلة والفرات، فإنا لله على الفناء والممات، ولله در من قال:

النـاس مثـل حبـاب والـدهـر بـركـة مـاء

فعـالم في طفـو وعـالم في انـطفاء

والآن نعود إلى ابن حوقل، حيث يشير إلى رباطات تحف بشالة يسكنها الناس، ولابد أن يكون بين الرباطات موقع بناية شالة المرينية، ومن المؤكد أنها تستوعب القلعة القيادية لكل من الأدارسة وبني يفرن كلها أو بعضها، وهي حقيقة تؤيدها الحفائر الأثرية سنة ١٩٦٠ م بشالة، فقد كشفت هذه التقنيات، عن تخطيط محرابين، وحدودهما أسفل محراب مسجد

يعقوب بشالة المرينية، فيرجّح المكتشفون أن أحد المحرابين لمسجد من العصر الإدريسي، والثاني من عصر بني يفرن[٥].

وعن الدولة الأخيرة كشفت الحفائر قبة مدفن الأمير تميم اليفرني وولده محمد لصف قبلة مسجد يعقوب بشالة[٦].

ومرة ثالثة يذكر الأستاذ الأثري عثمان إسماعيل، كشفاً في المكان ذاته لقاعة شهداء موقعة طريف بالأندلس أيام أبي الحسن المريني، ويحدد مكانها بين الجدار الشرقي لمصلى مسجد يعقوب المريني، وبين الجدار الغربي لصحن زاوية الخلوة[٧].

ومن شأن هذا الاكتشاف أن يحدد الطابع الجهادي للمنطقة، ويبرز واحدة من حيثيات قدسية شالة.

■ ■ ■

لم يبق -بعد هذا- إلا أن ينتهي بنا المطاف إلى عمق شالة المرينية، حيث قامت الدراسات حولها: مغربية ومشرقية وغربية. فلنقف حيث انتهى هؤلاء، في محاولة لتقديم إضافة جديدة عن المأثرة المرينية.

ومن ذلك أن المؤلفين - المنوه بهم - ذكروا القبة المشيدة على ضريح أبي الحسن المريني، مع البناية المتصلة بها التي تسمى زاوية، غير أنهم لم يذكروا لذلك مستنداً تاريخياً، ولا نقشاً أثرياً.

ولحسن الحظ أن أثار هذه النقطة بالذات مؤلف عاصر إنشاء البنيتين معاً، وهو إبراهيم ابن الحاج النميري، فسجّل في «فيض العباب»[٨]، عن أبي عنان أنه هو مؤسس القبة - بشالة - المرفوعة على مشهد والده أبي الحسن، وزوجه شمس الضحى.

وعن وصف البناية وهي في جدتها يذكر أنها من عجائب الدنيا، وأعظم مصانعها: أزرها من الرخام الأبيض الناصع، وقد ازدانت الواحة بالزخرفة والتنميق، وغطت واجهات البناية حتى اتصلت بتيجان الأقواس.

وبعد هذا ينتقل المصدر نفسه إلى مدرسة شالة، وهي التي تسميها الدراسات -غلطاً- بالزاوية، وينسب بناؤها لأبي سعيد المريني الأول، غير أن ابن الحاج النميري يثبت -بحكم معاصرته- أن مؤسسها هو أبو عنان، ويصفها وهي في رونق جدتها، فيقول بعد ذكر مشهد أبي الحسن:

«وهي متصلة بهذه القبة الجديدة، مجاورة منها للروضة السعيدة: مدرسة شامخة البناء، وثيقة الأساس، منفسحة الأرجاء، حيطانها كالأسوار، لابسة البياض. رائقة الجمال، وقد رتبت أحسن ترتيب، وبوبت مداخلها أحسن تبويب، وفرشت من الزليج بما هو أجمل من ممطور الأزاهر، ونسقت غرفها على رؤوس بيوتها نسق التيجان...». ثم يختتم بوصف مصلى المدرسة، وصهريجها الذي يشق صحنها.

■ ■ ■

وننتقل –الآن– إلى ابن الخطيب[9] وهو يدوّن «نفاضة الجراب» فيخبرنا عن موسم أغر عايش مباهجه وهو مجاور بشالة، والقصد ليلة سبع وعشرين من رمضان، فيصف لسان الدين الاحتفال المقام في الحرم المريني بهذه المناسبة حيث يقول:

«... واظلت ليلة سبع وعشرين إحدى مواسم شالة، المختصة باستجلاب الأمم، وتخييم الخيم، واحتفال الأسواق، ورفع المغارم، والوليمة لأهل الخير وأولي الهيئات بالضريح، فاحتفل معتاد الإطعام... واستدعيت أصناف الحلواء، واستكثر من الوقود، واستدعي إلى الإيوان لصقها – المعدّ لذلك – المغنون، واستحضر القاضي والعدول، والخواص والأعيان والأمناء».

وهكذا قدمت لنا ارتسامة ابن الخطيب وصفاً لإحدى الحفلات الدينية بشالة المرينية، مع إشارة لتعدد مواسمها، ثم دللت الفقرة نفسها على عمارة مدينة الرباط آنذاك، مما استلزم نصب القاضي والعدول، فضلاً عن وجود طبقة الخواص والأعيان والأمناء.

■ ■ ■

ونقف مع ابن الخطيب مرة ثانية: فقد نظم موشحة تطرّق فيها إلى مدح أبي سالم المريني، بعد ماأفاض في ذكر سلا والرباط وشالة:

ياحادي الجمال	عرج على سلا	هام بالجَمال	قلبي وماسلا
عرج على الخليج	والرمل والحمى		
في المنظر البهيج	بالبيض كالدمى		
والأبطح النسيج	من صنعة السما		
لله من جلال	تختال في حُلا	لم تلف في اعتدال	عنهن معدلا
وطف من الرباط	بركن طائف		
بمنزل اغتباط	دار الخلائف		
مقدس المواط	جم العوارف		
كم من سنا هلال	بأفقه انجلى	أنحى على الضلال	فانجاب وانجلى
جني النعيم دان	والبحر والغدير		
أهلّة الشواني	في أفقه تسير		

وقهـــوة الـــــدنــــــــــان يــــديـــرهــــا مــــديــــر

أغر كالغزال مقلد الطّلا يسطو ولايبالي بالأسد في الفلا

ونختم هذا العرض بإشارة تبرز عالماً من شالة دون أن توضح اسمه، وذلك مايسجله ابن القـاضي وهـــو يسرد إنشـادات شيخـه محمـــد بن يـوسف الترغـي، وهكـذا يأتي في «درة الحجال»[١١] والسياق عن العالم الترغي: وأنشدني لبعض علماء شالة:

كل العلـوم سوى القـرآن زندقـة

إلا الحديث وإلا الفقـــــه في الــــدين

والعلم منبع مـا قـد كان حـدثنـا

ومـاســوى ذاك وسـواس الشيـاطين

القاضي عياض في الإلماع[١٢] ينسب البيتين لبعض علماء شـاش، كأن هذه البـلاد تصحفت عند ابن القاضي بشالة. ■

هوامش بالمصادر:

١ – «كتاب صورة الأرض» منشورات دار مكتبة الحياة- بيروت دون تاريخ ص ٨٢.

٢ – «روض القرطاس» لابن أبي زرع، المطبعة الحجرية بفاس ١٣٠٥ هـ: ص ٧.

٣ – «المصدر» ص ٧٤.

٤ – دار النشر المغربية – الدار البيضاء ١٩٨٥: ص ١٤١.

٥ – «حفائر شالة الإسلامية» د. عثمان عثمان إسماعيل، دار الثقافة- بيروت ١٩٧٨: ص ٣٠٧ ومابعدها.

٦ – «المصدر» ص ٢٠٤ ومابعدها.

٧ – «المصدر» ص ٢٤٠.

٨ – مخطوط الخزانة الحسينية بالرباط. س ٣٢٦٧: ص ٥٧– ٥٩.

٩ – «نقاضة الجراب» السفر الثاني، دار الكاتب العربي- القاهرة دون تاريخ: ص ١٢٢– ١٢٣.

١٠ – «المصدر» ص ١٦٩– ١٧٠.

١١ – نشر المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة عام ١٢٩١/ ١٩٧١: ٢/ ١٧٤.

١٢ – نشر المؤسستين ١٣٨٩/ ١٩٧٠: ص ٤١.